نـافـذة

الصحافة والأدب

جميل جداً أن نعتاد الصحيفة اليومية المفضلة، والأجمل أن نمرَّ على المكتبات، ونطّلع على جديد الإصدارات أو الكتب المترجمة، ومهم أيضاً أن نعتاد حملها والتباهي بأننا قرأنا موضوعاً، وتابعنا العناوين الكبرى اللافتة للنظر، ومن الضروري أن نتناقش حول أين وصلنا من فصول كتاب سياسي أو فلسفي أو حتى اجتماعي، وعند أي مشهد توقفنا من روايةٍ أو قصة، أو كم مقطعاً شعرياً أثارنا وحرك مشاعرنا، إنه لأمرٌ نوعيٌ أن يصل موزع الصحف، ويرمي على شرفاتنا، أو يقرع أبوابنا، ليسلمنا صحيفة اشتركنا بها، أو يوصلها إلى مكاتبنا، وحتى لأماكن عملنا، أو أن يضعها في صندوق بريدنا.

لماذا دخلت من هذا الباب؟ لأنني ومعي الكثيرون، بتنا نشهد السعي الدؤوب لإبطال مفاعيل الصحيفة والكتاب أمام سلطة الوسائط الاجتماعية السريعة والمتسارعة، بما تحمله من غايات وأهداف، ولكن يبقى لهما الحضور، لأنهما يمتلكان شطحات الفكر وشذوذ النفس، أحوالهما تنتصر على فعالية الإنسان، وتتعداها وصولاً إلى غير فهمها في فعلهما، يؤلبان العقول، ويقودان الأفكار الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية إلى المهوى الذي يسعيان إليه، وكل منهما يحمل فكرة أو أفكاراً، وإذا كانت الفكرة بحد ذاتها حركة، فكيف بأولئك الخائفين من الأفكار، وخاصة تلك التي يعبر عنها الأدباء والشعراء الفنانون والمفكرون وأصحاب الثقافة العالمية؟ حتى إنّ أصحاب الأفكار السامية أو الخبيثة يلجؤون إلى عنواننا للتعبير ونشر ما يريدون الوصول إليه، فأفكار الآداب وما تنشره الصحافة تتحول إلى رصاص مطور لمناحي الحياة، يدمدم ويفتك في الجسوم بغاية إصلاح أجهزتهم الحيوية وتجميل حضورها بالمتناسب، لا بالمتنافر.

كيف بنا ننتقل من العواطف القلبية إلى الصور العقلية التي تعيد للقلبِ خفقانه الإبداعي؟ إن لم يكن هناك شعر وأدب فكيف بنا نطوِّر الأحاسيس الغافية؟ إذا لم تحضر لغة غير مألوفة لذهنية الحاضر، فكيف تمايز العين بين القبح والجمال؟ إن لم تعتد النظر إلى الرسوم الراقية، فهل هناك من يهتك أغشية بكارة الآداب والشعر، أو يغتصبها، ويلقي بسلطانه على الصحافة البيضاء بإرادة تحويلها إلى صفراء، ومن ثمّ القضاء عليها؟ نعم هناك، وهؤلاء هم الراغبون في قتل الآداب وموت الصحافة.

تموت الصحافة لحظة انتهاء الصحفيين من الإبداع، ويموت الكتاب حينما يموت المؤلف، وبعدهما يموت القارئ، وكي لا تموت الصحافة، ومن أجل ألا نفقد الآداب، علينا أن نأخذ بالأمر الإلهي إلى رسوله «اقرأ»، وقرأ على العكس تماماً مما قاله المفسرون، وأخذ به العامة، وأنجز أُمةً، وقبله حضر السيد المسيح وقال في البدء كان الكلمة، وصنعت الكلمة أُمةً، كيف بنا لا نقرأ، ولا نبدع، ولا نتطلع إلى اليوم ومجرياته، ونتجه بالأفضل للغد؟

ليكن حسن التعبير عن الأحاسيس والمشاعر بحرية مطلقة، وليكن من دون ضير إلى جانبها تمجيداً للدين والسياسة والساسة، دعونا نخرج المكبوت إلى الحياة بشكل جميل وراق، ربما فقدت الصحافة كثيراً من أضوائها، وكذلك ظهرت الآداب بعيدة عن العبقريات الجاذبة، ولأن العبقرية تعني الإبداع من الجوهر، ولا تعني كثيراً في الشكل أو المظهر على أهميتها، ولا تستحدث في الفروع، بل في الأصول، وتخترق العادات والتقاليد، وتنفض عن كاهلها عبء القرون، وتتقدم، تحضر عصرها مرسخةً للمجتمع سبل المستقبل، ومخرجةً الواقع من الأحلام والحب، من الفلسفة والتقدم والتطور، من التخلف، لذلك نسأل الصحافة والأدب عن هواة الأدب والشعر والموسيقا والرسم والنحت والعمارة والمسرح والسينما، أليست مصادر الإلهام من سماء كل واحد مما استوحاها من أحاسيسه وخواطره، ليكون له السبق على القارئين والمتمتعين بما يقدم، ويفسح المجال لنمو فكر الآخر.

من يرينا آلامنا، ويحرك آثامنا العنيدة المكابرة وندمنا الجبان واعترافاتنا الخجولة المنكسرة؟ ربما تغالي الصحافة والآداب في وصف الأخلاق، وربما تذهب لتجريد العريّ النقيّ، وربما تنعى فجوراً، وربما يكون هناك فيهم من هو أشد فجوراً ونسقاً، ولكن هناك حدوداً فيها تحتبس الألسنة، وتتبلد العروق عند كل تجاوز، من أصحاب الآثار التصويرية القادمة من الحدقات المتوهجة الثاقبة الناثرة للجمال والمتعة عند الحقير والرائع وما بينهما، من يقدر على فك الألغاز الأنثوية والمشاعر الذكورية وفتح أعتى الأبواب وإغلاق أقسى الملفات؟

ألا تعتقدون معي أنَّ الحياة مبارزة فكرية، لاعبوها يمثلون جميع الأحياء، وأنَّ من الضروري أن يكون اللاعبون قادرين على التمييز بين الألوان والألحان، بين المشاعر والظلال، بين من يكتب بالقلم، ويحسن قراءة ريشة الرسام، بين الهزل والجدل والخيال، بين الواقع والخرافة، من يصنع كل ذلك إلا الكتاب بمختلف ألوانه، والصحافة وما تحمله من أخبار سريعة وعاجلة تجمع حولها المهتمين بشؤون العباد والبلاد، بعد أن تحولت من السلطة الرابعة التي أطلقها عليها اللندنيون مذ زمن إنشائها، والآن أُطلقُ عليها السلطة الأولى، فهي المؤسسة والموجهة البناءة إن أحسن استخدامها، والهدامة إن تركت لعنانها.

مؤكدٌ أن هناك من يسأل: هل لدينا صحافة؟ أقول نعم، لكنها صحافة حدودنا، وهل لدينا كتاب؟ أقول نعم، ولكنّ أفكارهم لم تخترق حاضرنا، وتسكن مستقبلنا، فكيف بها تخترق العالمية؟

إذاً.. وأمام حركة النهوض العالمي، على جميع العاملين في هذين الحقلين الإقلاع بهما، فالظروف جد مواتية، والذي جرى ويجري لعالمنا العربي وبشكل خاص في وطننا الغالي العزيز ليس بالسهل، وفي الوقت ذاته ولّدَ التفكير وأوجد الفكر والأفكار والعناوين المذهلة التي من المفترض استخدامها مباشرة في إعادة إعمار الإنسان والأرض، حيث آن الأوان لفعل كل ذلك، أو السير إلى سبله، وإذا أدركنا ما نريد الوصول إليه، نجد أنَّ الصحافة والأدب يشعلان الحروب ضد مفاسد الإنسان وحقارته ودناءة أفعاله، يهاجمان الجبن وأحاسيس الكراهية، ويتعززان من الشرور، يقاومان معاً شهوة العين للمحيط وانحراف اللحم الإنساني لفهم وغرور التطلع للمادي والتكبر على مشاعر الحياة وجمالها، كيف بهما لا يحاربان كل هذه الصفات الرديئة والقميئة؟ وكيف بتلك الصفات السالبة لا تعمل على محوهما من الوجود المادي والفكري إن قدرت؟ ومؤكد لن تقدر.

أدعوكم أيتها السيدات وأيها السادة من كل الأجيال ومختلف المذاهب والمشارب والدرجات الفكرية والاجتماعية والسياسية الفاعلة والمنفعلة في هذه الحياة إلى مأدبة الصحافة والأدب التي تحمل الكثير من الكلام البليغ الحامل للنصح والتمتع بالحكم والأخلاق الراقية وإصلاح المجتمعات والأمم، ليقدم فيها ومن خلالها العلوم والآداب التي تتصف بالجمال والتأثير في الحياة، لا المضي منها، هكذا ومهما بلغت التكنولوجيا، وأبدعت في تحويل الصحافة إلى إلكترونية والكتاب كذلك، فإن الغريزة الشبقة للمعرفة والتعلم والعلم وحاجتها للحوار والثرثرة تؤمن بأنَّ الصحافة الورقية وكذلك الكتاب الورقي لا يمكن لهما أن يموتا، ولن ينتهيا أبداً، وطَلبُ تطويرهما بالشكل الجاذب غدا أكثر ضرورةً، وهذا يتم عندما تقوم الصحافة والكتاب بالإجابة عن الأسئلة المهمة والكبيرة التي يحتاجها القارئ والمتطلع إليهما، ويحلان له الكثير من الألغاز الحياتية، الأمر الذي يدفع للبحث عنهما أكثر والتعلق بهما، ويؤدي بدوره لإنقاذهما من الموت، فجمهور الصحافة والكتاب يصنع صناعةً من خلال تقديم صحافة متطورة، تحمل مساحةً تخترق فكر متابعها وحدودها في آن.

د. نبيل طعمة

مفقودات دمشق تحولها إلى ذكرى في الكتب

مخطوطات ثمينة وثريات فاخرة وسجاد الأموي النادر أين المصير؟

د. سامي مبيض

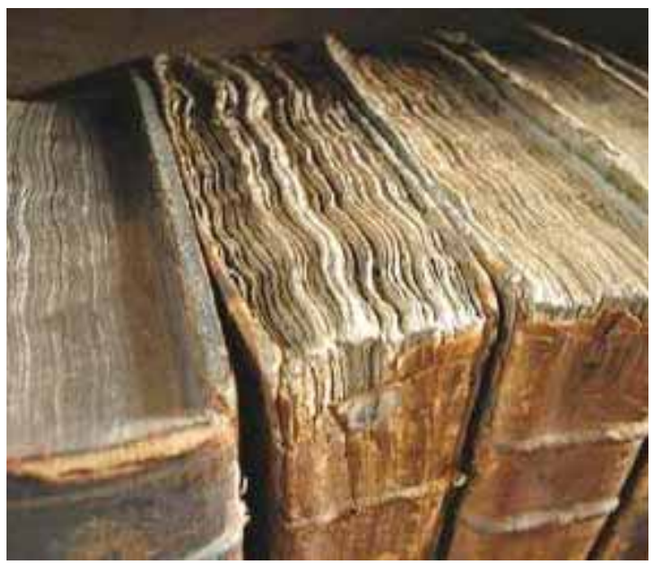

عندما يأتي ذلك اليوم وتضع الحرب أوزارها سوف تدرك مدينة دمشق مدى الخراب والتشويه الذي حلّ بها خلال السنوات الماضية، وعندها سيأتي جيلٌ جديد من السوريين ويسألنا بغضب: «ماذا فعلتم بدمشق؟»

سيبحث هذا الجيل عن بقايا مدينة كانت الأجمل بين المدن، ولن يجدها إلاّ في كتب التاريخ وأشعار نزار قباني. سيكتشف هؤلاء بأن «مدينة الياسمين» شوهت في بعض الأحيان إلى درجة لا يتصورها العقل، فبعض الأحياء حتما لم تعد تشبه دمشق. جميع أرصفة المدينة كسرت أو سرقت ولا مكان للمشاة عليها إما من أجل نراجيل المقاهي ومقاعدها، أو مولدات الكهرباء أو كولابات الحراسة. الحدائق حرقت والجدران شوهت، بردى الجميل جف كلياً وصارت روائحه مصدر إزعاج لكل من كان يتباهى به أو يسكن في جواره.

قصور دمشق القديمة مظلمة اليوم، تلعب بها الرياح كبيوت الأشباح. البعض منها انهار جزئياً فوق رؤوس أصحابه، مثل سرايا عبد الرحمن باشا اليوسف في سوق ساروجا، والبعض الآخر قُصف بقذائف الهاون كقصر الأمير عبد القادر الجزائري بحي العمارة، وهناك قصور تتلاشى أمام أعيننا بسبب التراخي والإهمال مثل قصر الرئيس محمد علي العابد.

أما ساحة المرجة العريقة أو ساحة شهداء سورية، فحدث ولا حرج، بسطات، فوضى، وتشويه بصري لا مثيل له.

وكأن كل ذلك لا يكفي، فقد ضاع الكثير من نفائس دمشق، أو فقدت، ولا أحد يعرف مصيرها. منذ فترة مثلاً أثيرت قضية ٤٠٠ مخطوط عثماني مخزن في صناديق مياه بقين في غرفة مؤذني الجامع الأموي، وتلاها قضية الثريات القديمة الفاخرة، التي لم يبق منها في مستودعات الجامع إلا واحدة فقط. ومؤخراً تساءل البعض عن مصير سجاد جامع بني أمية الكبير بعدما تمّ استبداله ببسط حديثة، تماما كما حصل من قبل مع الجامع الكبير في حلب، مع إنه قبل الحرب تم تشكيل لجنة لمعاينة ممتلكات الجامع في دمشق، وقررت إرسال سجاده الفاخر إلى متحف الأموي، تحت إشراف العلامة الشيخ عبد الرزاق الحلبي رحمه الله.

نسأل فقط: أين سجاد الأموي؟

قد تكون السلطات المعنية نقلته إلى مكان آمن، حفاظاً عليه، ولكن من حقنا أنْ نعرف ذلك. في ستينيات القرن المنصرم تمّ نقل معبد أبي سمبل الأثري جنوب غرب أسوان لتجنب غرقه خلال إنشاء بحيرة ناصر، وأُعيد تركيبه في موقع جديد أمام كاميرات التلفزيون المصري والعالمي، لكي لا يعبث به أحد أو تتم سرقة أي من معالمه فهو ملك الحضارة البشرية وليس ملك الحكومة المصرية، تماماً مثل سجاد الجامع الأموي بدمشق، فهو ملك الشعب السوري.

قد يتهمني البعض بالترف أو الإسفاف بالدمشقة، ولكن اهتمامي بسجاد الأموي حصراً وبشوارع دمشق الهرمة لا يعني عدم الاكتراث لمصيبة الرقة أو كارثة تدمر أو نكبة دير الزور أو جريمة حلب، فجميعها تدمي القلب، ولكن هذا لا يعني أن نقبل الدمار ونشرعه بسبب ظروف الحرب. تلك المدن أنهكتها الحرب أما دمشق فقد كانت ضحية الإهمال والفساد فقط لا غير، فباستثناء بعض القذائف وظروف الحياة اليومية القاسية هي لم تعش الحرب بالمقارنة من شقيقاتها من المدن السورية.

مع ذلك لقد فقدت دمشق الكثير الكثير في السنوات الماضية، فأين الأرشيف القديم لمبنى التلفزيون مثلاً، الذي كلما سألنا عنه قبل الحرب قيل إنه في «مستودع السبينة». هل دمرته الحرب يا ترى؟

في مبنى البرلمان السوري، كان هناك مكتب فخم من الخشب الفاخر يعود للرئيس فارس الخوري توارثه جيل بعد جيل من رؤساء المجالس منذ مطلع الأربعينيات، ولكنه غير موجود اليوم وتمّ استبداله بمكتب مشابه ولكن مزيف ولا أحد يعرف أين ذهب المكتب الأصلي. هل ضاع في مستودعات المجلس أم تم نقله إلى مكان آخر؟

لا يوجد أي وثيقة في وزارة الدفاع السورية تحمل توقيع الشهيد يوسف العظمة، ولا أي تسجيل صوتي في إذاعة دمشق للرئيس الراحل شكري القوتلي. أرشيف مكتب عنبر، أولى ثانويات مدينة دمشق، نقل إلى قبو مدرسة جودت الهاشمي قبل سنوات ولا نعرف مصيره اليوم؟ هل هو بخير؟ أم إنه ضاع أو تلف. قامت الحكومة الهندية منذ خمس سنوات تقريباً بإتلاف أكثر من ١٥٠ ألف وثيقة من أرشيفها الوطني، بحجة أنّ كمية الأوراق الموجودة لم تعد تُحتمل، لأسباب تقنية ولوجستية ومالية. أثار هذا القرار غضب نشطاء ومؤرخين هنود وعالميين، تحديداً فيما يتعلق بملفات اغتيال المهاتما غاندي. وكان الجواب الرسمي بأنّ تلك الأوراق بأمان، مخبّأة داخل ٥٢ علبة تحتوي على ١١ ألف وثيقة سرية لم يُكشف النقاب عنها حتى اليوم.

في الهند سمعنا جواباً من السلطات ولكن لا جواب يأتي حتى الآن في دمشق وقائمة مفقودات المدينة تطول وتطول. فهل من مجيب وهل يحق لنا أن نسأل عن دمشقنا ومقتنياتها وما مصيرها وماذا حل بها؟ سؤال ننتظر الإجابة عليه.

المقتنيات ملك الشعب السوري.. أين ذهب أرشيف التلفزيون القديم؟

المهن الدمشقية العائلية

أنس تللو

راجت في دمشق القديمة منذ قرون خلت مهنٌ توارثها أفرادُ العائلة الواحدة جيلاً بعد جيل فبرع في ممارستها الجد والابن والحفيد حتى التصقت تلك المهنة بالعائلة كلها فغدت صفة دائمة لها ولقباً تُعرف به بين العائلات الأخرى مثل عائلة: الحلاق وترجمان والداية والبواب والحداد والسيوفي والشالاتي.

وتأتي أهمية هذه المهن القديمة من أمرين اثنين؛ أولهما أنها كانت تؤَمِّن كل حاجات المجتمع آنذاك من لباس وطعامٍ وأثاث ومتع روحية ونفسية، ومن ذلك مهنة (العجّان) وهو الفران الذي يقدم الخبز ومهنة (القصّاب) أي الجزّار الذي يؤمن اللحم اللذيذ لمتذوقيه، ومهنة القطيفاتي الذي يؤمن القطائف وهي نوع من الحلوى... والقضماني ؛ صانع القضامة، كذلك (العرقسوسي) وهو الذي كان يطوف في الحارات صيفا ينادي على شراب العرقسوس... أما على صعيد الأثاث فقد كثرت العائلات التي امتهنت تلك المهن مثل: (آل الصباغ) وهي المهنة المختصة بصباغة الملابس وتعديل ألوانها، ومهنة (الصبان) وهي مهنة صانع الصابون ومهنة (القباقيبي) وهذه المهنة لا كما يُفهم من اسمها مختصة بصناعة القباقيب الخشبية فقط، بل إنها تقدم معظم أدوات المطبخ الخشبية الصغيرة ؛ مثل: مدقّة الكبة- (شوبك) لرق العجين- هاون الثوم- مدقّة الحمّص والباذنجان المشوي- ملاعق التحريك الخشبية الكبيرة- (الكفكير) الخشبي- علاّقات الصحون- المنخل- قوالب الحلويات المنزلية... وكان القباقيبي هو الذي يصنع (النمالي) التي كان الطعام يُحفظ بها وقاية له من الحشرات.

وعلى الصعيد الفكري هناك مهنة (الصحّاف) وهو بائع الكتب، وكان مركزها في سوق المسكية عند نهاية سوق الحميدية... ومهنة العطّار وهو بائع العطر، وقد تطورت هذه المهنة فغدا يبيع السكاكر ثم أصبح مختصا بالأعشاب الطبية.

أما الأهمية الثانية لهذه المهن الدمشقية القديمة فهي استقطاب السياح من كل مكان من أجل الاستمتاع ببهاء التحف الشرقية القديمة؛ إذ ما أكثر ما يتسابق الأوروبيون على اقتناء قطعة من قماش البروكار الدمشقي الذي يعتبر من أشهر وأفخم الأقمشة في العالم أو الأغباني المطرز بخيوط الذهب والفضة أو قطع الخشب المصنوعة من الموزاييك المزخرف أو المصدّف اللامع.

سر الصنعة وتوارث الحرفة

لم يكن الأمر عشوائيا كما قد يُظن، إذ ليس عبثا أن نجد أن هذه المهن كانت تورث من جيل لآخر ؛ وما التصاق لقبها بالعائلة الواحدة إلا دليل على ذلك، فقد كان الأب ينقل عن الجد ما يسمى (سر الصنعة) ثم ينقلها الابن للحفيد... فتستمر الحرفة وتزدهر وتزهو بالحفاظ على السر... وكانوا يقولون إن كل صنعة معلّقة بقشة، وهم يقصدون بها ذلك السر المحفوظ.

وقديما قالوا في الأمثال: (يلي بيغير كارو بيقل مقدارو)... ويبدو أنهم كانت لديهم ثقافة خاصة بالاختصاص سواء بالمنتج أو بمكان التسويق.

وإني ما أدري هل يكون ذلك بالوراثة الحقيقية أم أنه يكون بالممارسة، فهل كل نجار أو حلاق ينبغي أن يكون ابنه مثله.. ولقد تطور هذا الأمر اليوم حتى وصل إلينا فنجد الطبيب يميل إلى أن يكون ابنه مثله طبيبا، وحتى على مستوى الفن تنتقل (المواهب) بين الأجيال سواء على صعيد التمثيل أو الإخراج وما إلى ذلك.

مهن باقية ومهن اندثرت

غزت التكنولوجيا الحديثة المهن اليدوية القديمة فصمدت بعض المهن وظلت باقية على حين انقرضت مهن أخرى.

وأما التي انقرضت فمنها مهنة السلال، ذلك الذي كان يصنع السلال من القش، ومهنة الغلاييني الذي كان يصنع الغليون من التراب الأحمر المطحون إذ يجعله يتخمر في الماء ثم يعجنه جامدا ثم يصنع منه الغليون بواسطة قالب ثم يشوى في فرن معدّ لذلك... كذلك زالت مهنة الحزّام ذاك الذي كان يحزم الأمتعة والبضائع بأسلوب فني مبدع يجعلها كقطعة واحدة بخيث يكون السفر مريحا.

وزالت مهنة الحكواتي؛ قضت عليها أجهزة التلفزيون تلك التي تكاد تزول حالياً بعد انتشار الموبايل.

وأما المهن الباقية فمنها: الحفار والصباغ والعرّاف (الذي يقرأ الكف).

كانت الحرفة مدرسة ثانية تشبه المدرسة الأولى، وكان كثير من الأهل يدفعون بأولادهم إلى تعلم حرفة ما في الصيف إما درءاً للفقر أو تربية للولد لكي يتعلم معنى الاعتماد على النفس... وكم وكم من مهن قديمة خرّجت علماء جمعوا بين العلم والعمل.

وما سُميت المهنة (حرفة) إلا لأن الإنسان ينحرف إليها في أول حياته ويميل إليها فتغدو هي حياته كلها يتعلم منها ويكسب رزقه ويعلّم أولاده.

أما اليوم فإن (الملهيات) التي يتلهّى بها أولادنا لا تُبقي لديهم (ذرة) من وقت ليلتفتوا إلى أمر آخر.

اليوم لم تعد هناك من قيمة للعمل اليدوي بعد أن غدا كل شيء جاهزا.

لقد جاءت تلك الأدوات الكهربائية تحمل معنى (الفخامة)، لكنها قضت أو كادت تقضي على تلك الأدوات القديمة التي تحتوي في جنباتها على (العراقة).

حتى على الصعيد المنزلي كان جرن الكبة يقدم الطعام أطيب بكثير مما تقدمه (فرامة اللحمة).

أظن أننا نحتاج إلى وقت طويل كي نتمكن من أن نحسب ماذا ربحنا وماذا خسرنا!...